الفصل السادس

حركات التحرير الإفريقية

تمثيل حركات التحرير في مصر

حضر الكثيرون بعد قيام منظمة الوحدة الإفريقية للقاهرة وطلبوا دعمها، خاصة وأنهم استجابوا لمقترحات بأن تكون القاهرة العاصمة التالية لاجتماع وصف بأنه القمة الأولى لمنظمة الوحدة الإفريقية في مايو 1964. وتأكيدًا لدور المنظمة في مواجهة الاستعمار شكلت القمة "لجنة التنسيق لتحرير المستعمرات" ومقرها في دار السلام أقرب نقطة للمناطق المستعمرة والاستعمار الاستيطاني وأقرت مساعدتها بالسلاح والتدريب من الدول الإفريقية. وأصبحت مصر إذن في موقع وسط بين غانا وتنزانيا وزعمائهما، بل وسطًا أيضًا بين السنغال وساحل العاج كدول كبرى – ومتنافسة – في التعبير عن الاتجاه الخاص "بالأوكام" (المنظمة المحلية للفرنكفونية). وكان الميل في منظمة الوحدة الإفريقية لحل هذه التنظيمات الإقليمية أو

النوعية، فتوقف أصحاب الدار البيضاء ولكن لم يتوقف أصحاب مجموعة منروفيا المحافظة وخاصة من كانوا في إطار "الأوكام" حتى بعد ضعف إطار منروفيا نفسه.

كانت هذه الأيام أمجد أيام النشاط "الإفريقي" في القاهرة، وأصبحت مكاتب حركات التحرير الإفريقية بالزمالك موضع اهتمام أكبر من قبل الإعلام المصري والعالمي. وأصبحنا في القاهرة نتحدث عن الكفاح المسلح "على المكشوف" لا نخشى من اتهام بالتدخل هنا أو هناك، خاصة وأن القاهرة قد مرت بنجاح من حرج منع تشومبي من حضور مؤتمر القمة فيها 1964 وهو الانفصالي مغتصب السلطه مع موبوتو. وقد كنا احتجزناه في أحد قصور الرئاسة هو وكوكبة من الحسناوات البلجيكيات ممن اصطحبهن معه..! مما جعله عرضة لتندر شعبي أعطى إعلامية أكبر للحدث الإفريقي، وأحرج المجموعة الفرنكفونية التي رتبت لحضوره بهذا الشكل المحرج للقاهرة.

بدت حركات التحرر وخاصة الجديدة من المستعمرات البرتغالية ساعية إلى القاهرة على نطاق واسع بدورها، وكنت أرقب بفخر سعادة الزعماء الثوريين بعد مقابلاتهم لعبد الناصر. وقد أدار محمد فايق وجوقة العاملين في الرئاسة منا "للشئون الإفريقية" في هذه الفترة هذا النشاط باقتدار ظل يذكر لنا، حيث كانت التعليمات هي تيسير المقابلات والنشاط للجميع، وترك تقييمات قوتهم "للجنة تحرير المستعمرات" كما كنا نسميها. وأدى

ذلك أن أصبح في القاهرة أكثر من عشرين مكتبًا بسبب إمكانيات تعدد المنظمات من بلد واحد، وهنا كان مأزقي الشخصي. إذ كان عليّ التنسيق بدوري بين هذه المنظمات في مطالبها من القاهرة وتقديم صورة يستطيع مكتب السيد محمد فايق وأجهزة الرئاسة المختلفة التعامل معها بوضوح في شأن المساعدات المقدمة، وتيسير تحرك هذه المنظمات في القاهرة حيث التمثيل الدبلوماسي الواسع لدول العالم، والبرامج الإذاعية الموجهة، وإمكانيات التدريب العسكري "المحدودة"، أو المنح الدراسية في مختلف مراحل التعليم. كنت شخصيًّا في حالة تردد بين سعادتي بتقديم القاهرة للمساعدة والتمثيل لكل من يطلبها، وبين ضرورة حسم الموقف لصالح التنظيم الأجدر. لكن تعدد وسائل النضال كان بدوره إغراء بتأييد الجميع. ويبدو أن القاهرة كانت سعيدة بوسطيتها لأسباب أخرى كانت تتضح لي في سلوكها المتوازن دوليًّا كإحدى دول مجموعة عدم الانحياز في أجواء صراع الروس والصين، خاصة وأن القاهرة كانت من العواصم القليلة التي تقبل تجربة تحرك المنظمات بين قوى الصراع الدولي المختلفة.

صار هناك تمثيل في مصر لثلاث منظمات أحيانًا من بلد واحد مثل جنوب إفريقيا وأنجولا، وتمثيل لمنظمات هي انشقاق من المنظمة الأصل، مثل "زانو" و"زابو" من روديسيا، و"سوابو" و"سوانو" من ناميبيا، بل ولمنظمات غير ذات وزن بالمرة مثل "كوريمو" مع فريليمو في موزمبيق. لذلك وجدتُ عددًا من المنظمات تجتمع وحدها تحت شعار الأصليين ('authentic') بمعنى الأحزاب الأصلية والقوية في بلادها، وتضم حزب المؤتمر الوطني

الإفريقي (African National Congress, ANC) والحركة الشعبية لتحرير أنجولا (MPLA) وحركة تحرير موزمبيق (FRELIMO) ومنظمة شعب جنوب غرب إفريقيا – ناميبيا (SWAPO) وحزب استقلال غينيا بيساو وكاب فيرد (PAIGC) واتحاد شعب زمبابوي الإفريقي (ZAPU)، وكنا نُعرِّفهم باعتبارهم الموالين للسوفييت بينما لا يستطيع الآخرون الاجتماع أو تصنيف أنفسهم. إلا أننا نصنفهم وفق انحيازهم كموالين للصين! كانت "الحرب الباردة" في الرابطة الإفريقية مباشرة أكثر منها في العاصمة الكبيرة، حيث تتنافس الدول الاشتراكية على كسب هذا وإغراء ذاك، وعبرت مكاتب حركات التحرير عن الصراع الصيني السوفيتي بشكل أقوى منه بين السفارات المعنية.

مرفق قائمة بحركات التحرير الإفريقية التي كانت تصل واحدة بعد أخرى في القاهرة

Cairo Offices of African Liberation Movements

1. African National Congress (ANC), South Africa	المؤتمر الوطني الإفريقي، جنوب إفريقيا
2. Basoto People's Congress (BPC), Lesotho	مؤتمر باسوتو الشعبي، لسوتو
3. Djibouti Liberation Movement (DLM), Djibouti	حركة تحرير جيبوتي، جيبوتي
4. Eritrean Liberation Front (ELF), Eritrea	جبهة التحرر الإريترية، إرتريا
5. Eritrean People's Liberation Front (EPLF), Eritrea	الجبهة الشعبية لتحرير إرتريا، إريتريا
6. Etudiants de Tchad (ET) Tchad	طلاب تشاد، تشاد
7. Frente de Libertação de Moçambique (FRELIMO), Mozambique	جبهة تحرير موزمبيق
8. Governamento do Angola Independente (GRAI), Angola	حكومة أنجولا المستقلة، أنجولا
9. Kenya African National Union (KANU), Kenya	اتحاد كينيا الوطني الإفريقي، كينيا
10. League for the Liberation of Somalia (LIGA), Somalia	رابطة تحرير الصومال، الصومال
11. Mouvement de Liberation du Congo (MLC), Congo	حركة تحرير الكونغو، الكونغو

12. Movimento Popular do Libertação do Angola (MPLA), Angola	الحركة الشعبية لتحرير أنجولا، أنجولا
13. Pan Africanist Congress (PAC), South Africa	مؤتمر الوحدة الإفريقية، جنوب إفريقيا
14. Le Parti Africain pour l'Indépendance de la Guinée et du Cap-Vert (PAIGC), Guinee and Cape Verde	الحزب الإفريقي لاستقلال غينيا والرأس الأخضر، غينيا والرأس الأخضر
15. Union de Peuples du Cameroun (UPC), Cameroon	اتحاد شعوب الكميرون، الكميرون
16. Swaziland People's Party (SPP), Swaziland	حزب سوازيلاند الشعبي، سوازيلاند
17. South West Africa National Union (SWANU), Namibia	الاتحاد الوطني لجنوب غرب إفريقيا، ناميبيا
18. South West Africa People's Organization (SWAPO), Namibia	المنظمة الشعبية لجنوب غرب إفريقيا، ناميبيا
19. Uganda National Congress (UNC), Uganda	المؤتمر الوطني الأوغندي، أوغندا
20. União Nacional para a Independência Total de Angola (UNITA), Angola	الاتحاد الوطني للاستقلال التام في أنجولا، أنجولا
21. United Northern Rhodesia Independence Party (UNRIP), Zambia	حزب الاستقلال بشمال روديسيا المتوحد، زامبيا

22. Zanzibar National Union (ZNU), Zanzibar	الاتحاد الوطني الزنجباري، زنجبار
23. Zimbabwe African People's Organization (ZAPO), Zimbabwe	المنظمة الشعبية الإفريقية لزمبابوي، زمبابوي
24. Zimbabwe African National Union (ZANU), Zimbabwe	الاتحاد الوطني الإفريقي الزمبابوي، زمبابوي
25. Arab Maghreb Office, Maghreb*	مكتب المغرب العربي، المغرب
26. Provisional Algerian Government, Algeria*	الحكومة الجزائرية المؤقتة، الجزائر

* لم تكن الحركتان الأخيرتان ملتحقتين بالرابطة الإفريقية.

أمـا حركة الوحدة أو "يونيتا " UNITA في جنوب إفريقيا بقيادة تاباتا (I.B. Tabata) فكانت فيما يشـبه الانسحاب من المشهد السياسي خاصة حيث لم تمثل في الرابطة أو في لجنة تحرير المستعمرات. وقد ابتعد عنها تدريجيًّا صديق عزيز هو أستاذ الأنثروبولوجيا المعروف "آرشي مافيجي" الذي جاء للقاهرة من هولندا متزوجًا من الأسـتاذة "شهيدة الباز" الباحثة المصرية المعروفة بدورها. وقامت بيني وبين آرشي تحديدًا علاقات وثيقة وعائلية مشـحونة بمناقشـات لا تنتهي بالحدة تارة، والود الأخوي تارة أخرى. وكان يحكي عن ظروف "يونيتا" وارتباطها بقضية الأرض المسـلوبة عبر

المستوطنين، والسياسة المترهلة لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي، والحزب الشيوعي معه في هذا الصدد. واستمرت علاقاتنا بعيدة عن السياسة إلى مناقشات دائمة حول مفهوم القبلية المصطنع، وأنماط الإنتاج الإفريقية في السياسات المحلية، وانتهاء زمن الأنثروبولوجيا الكولونيالية.

مصر والتوازن بين السوفييت والصين

أذكر كيف كانت مثل هذه الحرب الباردة ساخنة تمامًا عند انعقاد أحد مؤتمرات التضامن الإفريقي الآسيوي، كان للسوفيت الباع الأطول في هذه المؤتمرات حيث يوفرون تذاكر السفر ونفقات الإقامة للجميع، وغالبًا ما تكون الاجتماعات في عاصمة موالية، فيظهر الانحياز لهم بشكل مثير. كان الموالون لموسكو يبدون في موقع القوة "والأصالة" بينما كان الآخرون يعانون قدرًا من العزلة.

وكان الموقف دقيقًا ومحرجًا بالنسبة لي. كنت من قراء فرانز فانون وما وتسي تونج، ومعجبًا بمقال "لين بياو" الشهير حول "المركز والأطراف"، حيث يرفض الريف نفوذ المدينة، والريف هنا بقيادة الصين هو دول ما يسمى العالم الثالث، والمدينة تضم البرجوازية الغربية (تمثلها السوفيت) باسم الاشتراكيين الإمبرياليين الذين يمضون على نمط الاشتراكيين الديمقراطيين القديم. وكان الجدل حادًّا وممتعًا لراغب في الثقافة مثلي حتى قضيت الوقت الطويل في قراءة مجلد محاورات اللجنة المركزية الصينية في خلافها مع

الإمبرياليين الاشـتراكيين. وأي "فانونيست" لا بد أن تستهويه مثل هذه الصياغات "الحصيفة". لكن المجموعة "الصينية" نفسها في القاهرة لم تكن تمثل لي قيمة فكرية، كما لم يكن نضالها في الميدان ذا قيمة، بينما كان النقاش مع قادة وممثلي "المجموعة الأصيلة" ذات الفكر الواضح والدبلوماسـية النشطة أعمق دائمًا.

وكانت أخبار "الثورة الثقافية" الصينية والكتاب الأحمر تثير السخرية في القاهرة أحيانًا كثيرة لا سيما وإن الحركة اليسارية في مصر لم توجه اهتمامًا مبكرا بثورة الصين الفلاحية الآسيوية. وقد وضعني ذلك في حرج شديد إزاء تعاطفي السابق مع الصين أو بالأحرى الماوية. كان الحكم الناصري ومعظم المثقفين في مصر يقبل الصيغة السوفيتية عن "التطور اللارأسمالي"، و"الثوريون الديمقراطيون"- و"البلدان الآخذة في التحرر"، إلى آخر هذه الصيغ الوسطية المرضية لمعظم قادة العالم الثالث ومثقفيه، ولكن غير مرضية لأي تيارات أكثر راديكالية بين الشـباب، والتي وصلت بهم إلى أحداث 1968 في أوروبا وخارجها.

لم يكن الصراع الصيني السـوفيتي هو محـور القلق الوحيد في القاهرة طوال الستينيات، بل إن "المجموعة الماوية" سرعان ما انعزلت دون قدرة على التنظيم الخاص، فبدا أعضاؤها كأنهم مجرد مشاغبين في الاجتماعات العامـة لتعرية منافسـيهم من "الأصليين"، بينـما لم يكونوا يحملون دلائل التقـدم في مناطـق "كفاحهم". وفي نفس الوقت اشـتد نفوذ "الأصليين"

بسبب تقدمهم النضالي في أنجولا وغينيا وموزمبيق ونسبيًّا في روديسيا وناميبيا، ومن هنا اشتدت مقاومتهم لهؤلاء الماويين "المزعومين". وأذكر أن الرئيس "أوغسطينو نيتو" زعيم حركة تحرير أنجولا الشعبية كان لا يقبل أي دعوة مني لحضوره إلى مبنى "الرابطة الإفريقية" بسبب وجود مكتب حكومة انجولا المؤقتة "جراي" وحركة "يونيتا" فيه وهو يعتبرهم خونة، وكان هو قد اختار مكتبه ومسكن ممثليه خارج مبنى الرابطة.

استعدت معنى ذلك بشكل أعمق حين رفض نيتو الذهاب إلى العاصمة البرتغالية لشبونه، لتوقيع اتفاق وقف إطلاق النار استعدادًا للاستقلال عام 1975، وتصميمه على أن يأتي البرتغاليون بأنفسهم إلى أنجولا وفي منطقة انطلاق الكفاح المسلح للتوقيع. أما الرئيس "سام نيوما" زعيم سوابو في ناميبيا فكان أكثر تسامحًا، لأنه كان مسنودًا بقرار الأمم المتحدة لصالح جبهته، وكان معهد ناميبيا في لوساكا عاصمة زامبيا يشكل دعمًا خاصًّا له، بحيث تمت تصفية "سوانو" المنافس في وقت قصير، وكانت سمعة قادتها لا تساعد على استمرارها.

مصر وتعامل منظمة الوحدة الإفريقية مع حركات التحرير

كنت أشعر أن إقامة منظمة الوحدة الإفريقية قد حاصرت أنشطة التحرر الوطني إلى حد ما لصالح البيروقراطيات الحاكمة، وبعضها مستبد صارخ. ظهر هذا الأمر جليًا بالنسبة لقضايا عديدة مثل السكوت على سلوك إثيوبيا

تجـاه إريتريا، أو في مناطق النزاع مع الصومال أو جزر القمر (كومورو)، والسـلوك الفرنسي تجاه دول الفرنكفون. ورغم تحفظ مصر السـابق على السياسات الفرنسية أوائل الستينيات، إلا أننا بتنا نحافظ على مشاعر فرنسا الديجولية وأصدقائها، إلى حد الصداقة مع الشاعر الرئيس "ليوبولد سنغور" رئيس السنغال، وتجاهل منافسه التقدمي المتخصص في الحضارة المصرية، "شيخ أنتا ديوب". لم أرتح لاستقبال مصر الدافئ لسنغور سنة 1966، بينما كنـت أقرأ عن كتابات "ديوب" عن مصر. فضلًا عن اتجاهه الديمقراطي التقدمي مقارنة باعتماد سـنغور على القوى السلفية التقليدية من مريدين وتيجانيين... وقد اعتذرت للدكتور ديوب بنفسي عندما قابلته في معمله بجامعة داكار أوائل الثمانينيات، فابتسم لأحزاننا المشتركة في تلك الفترة! ولم أتسامح مع موقف سنغور إلا بعد تسمية جامعة داكار باسم شيخ أنتا ديوب!

مثال آخر على تعامل المنظمة مع حركات التحرر يظهر في زامبيا، حيث كانت تتراوح دائمًا بين دور دولة المواجهة، وبين الرضا بدرجة ما بسياسة الوفاق (détente) مع النظم العنصرية في الجنوب الإفريقي. وكانت القاهرة ودودة مـع "كينيث كاوندا" زعيم زامبيا، دائمًا مقـدرة وطنيته ومأزقه في حصاره بالمنطقة وتشـبيهه بمأزق مصر مع الفلسـطينيين. ولذا كنا نقابل الرئيـس كاوندا في مـصر بترحاب أعلى من سـمعته "الوفاقية" مع النظم العنصرية، فضلًا عن ظروف التحضير لقمة دول إفريقيا على أرضنا. كانت الناصرية هادئة تجاه مثل هذه المواقف، بينما كانت "أكرا" ملحة على إثارة

هذه القضايا ضده، رغم ضعف نفوذها في منظمة الوحدة. أذكر أن الزعيم كاوندا جاء مبكرًا للقاهرة شتاء 1964 من لندن بعد حصوله على وعد الاستقلال في أكتوبر 1964، ولكنه كان يريد حضور أول مؤتمر للقمة الإفريقية في مايو. وبعد أخذه الوعد من عبد الناصر دعاه صديقه عبد العزيز إسحق راعي الرابطة الإفريقية للعشاء في بيته بالزمالك، وحضرت هذه المناسبة، وإذ بكاوندا يتركنا على المائدة ليسمعنا على البيانو مشروع السلام الوطني الذي يؤلفه بنفسه. وكانت سعادة غامرة صفق له معنا حتى المتطرفون الأفارقة ضده.

لم تكن أكرا وحدها في اختلاف المنهج، فقد بدا لي أحيانًا أن ثمة تنافسًا بين منهجنا في القاهرة وسلوك الجزائر مع حركات التحرير. كنا في القاهرة أكثر اعتمادًا على السياسة العامة للتحرر، وتوفير خدمات الاتصال الدبلوماسي والتواصل الإعلامي مع الخارج بالنسبة لحركات التحرير، بينما راحت الجزائر تعتمد على التدريب العسكري، وتوصيل السلاح إلى لجنة تحرير المستعمرات.

وقد سألت الرئيس أحمد بن بللا في باماكو عاصمة مالي 2003 أثناء انعقاد المنتدى الاجتماعي الدولي هناك، عما كان بينه وبين عبد الناصر من اتفاقات حول مساندة حركات التحرير الإفريقية، وهل صحيح أنه كان ثمة "اتفاق جنتلمان" بين الزعيمين حول ذلك؟ أكد بن بللا أن عبد الناصر كان يسلم للجزائر بدور خاص فيما يشبه ما وصفته من اختلاف بين

التجربتين على نحو ما... بمعنى استمرار حماس الجزائر للجانب العسكري في النضال وإتاحة الفرص السياسية أكثر في القاهرة، وهو ما استمر تقريبًا حتى بعد التحول السياسي على يد الرئيس بومدين، ودعم ذلك وصول معمر القذافي لحكم ليبيا متبعًا الاتفاق نفسه.

كان عبد الناصر يتبع أسلوبًا خاصًّا وهو ما جاء في خطابه بأديس أبابا في إشارة مقتضبة إلى أنه لن يطلب تحديد موقف الاجتماع من إسرائيل، ولكنه سيدعو الزعماء الأفارقة لمعرفة حقيقتها بأنفسهم كجزء من مخططات الاستعمار التي يقفون ضدها. ونجح عبد الناصر في كسب تقدير "الرؤساء" القادمين لمعارك أخرى حول تأسيس مبادئ منظمة للوحدة الإفريقية وهذا ما جعل المنظمة تتبنى منظمة تحرير فلسطين مراقبًا في كل اجتماعات القمة. وتمت صياغة بيانات المنظمة في إطار الاعتدال وليس التطرف، وبموازنة دقيقة بين نكروما الوحدوي ونيريري المتحفظ، ورئيس ساحل العاج "فيلكس هوفويه بوانييه" الضالع في الفرانكفونية، بأنماطهم الثلاثة التابعة، بما جعل عبد الناصر و"هيلاسيلاسي" في وضع "الإخوة الكبار". أذكر أن هيلاسلاسي لاحظ قوة مركز عبد الناصر بين الأفارقة رغم أبوته الروحية في القارة، وكان الرؤساء يقفون مصفقين في أي قاعة يتم فيها اجتماع الرؤساء عند دخول عبد الناصر، وهذا ما لم ألاحظه في أي مؤسسة دولية أخرى. لذا كان هيلاسلاسي يحرص على دخول القاعة برفقة عبد الناصر، تاركًا كلبته الصغيرة ذات الجرس تتقدمه إلى القاعة للتنبيه بحضوره كعادتها..!

وكانت حركات التحرير تشعر باعتدال القاهرة ودورها الحيوي في منظمة الوحدة الإفريقية نتيجة هذا التوازن، حيث مقر المنظمة في أحضان الإمبراطور هيلا سلاسي، ولجنة تحرير المستعمرات في أحضان جوليوس نيريري. وانطلاقًا من شعورها باعتدال القاهرة ذاك، راحت حركات التحرر الإفريقية تعمق علاقتها المباشرة بالسوفييت ودول الشمال الأوروبي الإسكندنافية من القاهرة. وساعد على سيادة روح الاعتدال الدروس الواقعية نتيجة مجموعة الانقلابات العسكرية التي وقعت تباعًا في الكونغو ثم غانا وبلاد الفرنكفون المتعددة.

لعل هذه الأجواء هي التي أعطت معانٍ خاصة لمحاولة مصر إبراز وجهها التحرري كما تمثل في زيارة أحد رموز الثورة الكوبية "تشي جيفارا" للقاهرة 1965، وحماسه لدورها مع حركات التحرير. كما كان ثمة معنى آخر لزيارات "مهدي بن بركة" المعارض المغربي لمصر، وتنسيقه مع عبد الناصر نفسه لعقد مؤتمر للقارات الثلاث في كوبا دعما لحركة عدم الانحياز على أساس شعبي أعمق وأوسع.

تأثير نكسة 1967

جاءت نكسة أو هزيمة مصر 1967 بعد الحرب العربية الإسرائيلية، وكأنها قمة النكسة الإفريقية عقب الانقلابات، التي مثلت ضربات لنظم التحرر الوطني في غانا ومالي وأوغندا والكونغو ناهيك عن منطقة الفرنكفون عمومًا.

وكنا في دوائر الشؤون الإفريقية نشعر بالخزي بدرجة أو بأخرى، وكأننا في مأساة تصفية التحرر الوطني، بعد فشلنا في تصفية قوى الاستعمار. كما كنا نشعر بالحسرة فعلًا أمام تراجعات النظم العسكرية الجديدة عن سياسات التحرر، وخشينا كثيرًا على مستقبل حركات التحرير الإفريقية، بل ومصير لجنة تحرير المستعمرات. وكثيرًا ما كنت أبدو مبتئسًا أمام القوى الوطنية المصرية المصممة على القتال والحرب الشعبية حتى التحرير الشامل... إلخ، وتمسكنا وقتها بشعار أطلقه بعض قادة المستعمرات البرتغالية، يقول "النضال مستمر والنصر أكيد" (Lutta Continua, Victoria Certe)، حتى كنا نردده في احتفالاتنا مرة لتشجيع أنفسنا ومرة للسخرية منها!

لكن حدث أن حركة الكفاح المسلح كانت تتقدم وتنجز فعلا، في مختلف المستعمرات وخاصة الباقية تحت السلطة البرتغالية، حتى ظهور "البوليزاريو" أوائل السبعينيات في الصحراء الغربية. وإلى جانبها كان تقدم نفس الاتجاه في حركة الكفاح الفلسطينية، مما رفع روحنا المعنوية إلي حد كبير...

أذكر أن التساؤل عن طبيعة التحولات الاجتماعية والديمقراطية في معظم الأقاليم الإفريقية الاستقلالية أو التابعة، لم يكن يختلف عما كنا نشعر به في مصر، حول الديمقراطية المطلوبة في نظام عبد الناصر، وطبيعة التحولات الاجتماعية الضرورية للتحرر أو الديمقراطية. وكنت أفاخر بزهو من "موقعي الإفريقي" أمام بعض الأصدقاء من اليساريين المصريين

والعرب عموما، إما دفاعًا عن النضال الوطني المستمر أو عن العلاقات السوفيتية الإفريقية. وكانت أطراف يسارية تسخر من محاولات عبد الناصر الذي يريد الحرب ثانية بمثل هذا الجيش، ولكن تلك المحاولات نفسها هي التي بُنيَ بها جيش حرب 1973. وأظن أن عبد الناصر أدرك بدرجة ما قيمة الحريات الديمقراطية أيضًا للدفاع الوطني، فراح يعالج بعض أشكالها. تولى اليساريون قيادة عدد من المؤسسات الإعلامية ونشطت المجلات والمسارح والسينما اليسارية بما مثل بعض التوازن في الموقف الداخلي والعسكري معًا.

لم يستمر هذا الشعور كثيرًا، لأن المفاجأة الفعلية جاءت من تطور أعمال الكفاح المسلح في المستعمرات، بعون من لجنة تحرير المستعمرات والدول الاشتراكية، بل وتقدم أعمال العنف الوطني المسلح في آسيا وأمريكا اللاتينية. كنت أشعر بزهو ممثلي حركات التحرير مع أنباء تحرير قرى ومدن جديدة بحيث أصبح تعبير "المناطق المحررة" ذا معنى، وكنت أسعد كثيرًا برؤية مَنْ كانوا في زيارة أجزاء من بلادهم، وسعدت كثيرًا بترشيحي من مصر في سكرتارية لجنة تحرير المستعمرات، لولا أن تدخلًا شخصيًّا من "أحدهم" قد حجب عني الوظيفة التي كنت أتوق لها. كنت أعتقد أنها منفذ جيد يتيح لي زيارة المناطق المحررة، ولم أرتح نفسيًّا من هذه الرغبة الملحة، إلا حين زرتُ المناطق المحررة مع ثوار إريتريا أواخر السبعينيات.

قلت إننا نحن الشباب المحيط بقوى التحرر الوطني وقيمها كدنا نشعر

بالإحباط الكامل، لولا التقدم الذي كانت تحرزه بعض بل معظم حركات التحرر الوطني من فيتنام وفلسطين، حتى بيساو ولواندا ومابوتو، وكثرت الوفود الممثلة لهؤلاء جميعًا للقاهرة، عقب نكسة 1967 أمام إسرائيل، وكانت القاهرة نفسها ترفع شعارًا ذا قيمة معنوية عالية وهو أنه ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، وتوثقت العلاقة بين مصر وكافة حركات التحرير مع السوفيت بوجه خاص حيث بدت الصين منشغلة بتصفية آثار الثورة الثقافية.

لاحظت في تلك الأيام بين 1967 حتى أوائل السبعينيات، أن بعض قوى التحرر لم تنهزم تمامًا، وأرجعت ذلك إلى طبيعة علاقتها بمناطق الكفاح المسلح، بل وكنا نقول إن كل منطقة تكافح مثل هذا الكفاح تحتاج بجوارها إلى "هانوي" مساندة لها مثلما نرى في فيتنام، ومعنى ذلك تبني سياسات معينة تجعلها صلبة مثل "هانوي" وهي سياسة اشتراكية حقيقية. لم يكن ذلك واقعًا بشكل مطلق، أو وفق نمط فيتنامي حقيقي، لأن هانوي نفسها كان وراءها الصين والاتحاد السوفيتي، وهذا قد لا يتوفر للدول الإفريقية. لكن مَنْ راقب التطورات النسبية في جمهورية غينيا (بجوار بيساو) أو تنزانيا بجوار موزمبيق، أو الكونغو برازافيل بل وثوار الكونغو كنشاسا بجوار أنجولا، كان يدرك صدق هذا الاستنتاج، على أساس أن نمط العلاقات في عملية الكفاح المسلح يقدم نموذجًا للبلد المجاور جديرًا بالتأمل، كما أن أعباء معاونة تجربة كفاح مسلح، تفرض مزيدًا من

الإجراءات الاجتماعية التقدمية. ولكن لاحظنا أيضًا أن ذلك لم يكن من حظوظ الفلسطينيين..!

لا بد أن أسجل هنا أننا كنا نبالغ في حقائق ما يجري في المناطق المحررة نفسها ومدى التزامها ببرامج حقيقية للتحول الاجتماعي، تشكل سندًا قويًّا لعملية التحرير أو للاستقلال بعد التحرير. لم أكن أعرف إلا نصوص أميلكار كابرال في النظرية الثورية، والتحرير الثقافي، لكني كنت أسمع أيضًا ما يأتي سلبيًّا عن المناطق القاحلة في موزمبيق، أو صراعات الحركة في جنوب إفريقيا رغم التنظير العالي هناك... إلخ. وأبرز صراع حزب المؤتمر الوطني الإفريقي مع غريمه مؤتمر الوحدة أو كثرة ما تردد عن سيطرة الحزب الشيوعي علي حزب المؤتمر الوطني في جنوب إفريقيا بصياغاته الخاصة للطبقي والوطني مدى العقبات أمام "الوطني" و"الاجتماعي" في عملية التحرير.

وكنا في مصر نفسها نأسف لمقاومة النظام الناصري لفكرة الحرب الشعبية لصالح أفكار البرجوازية عن الحرب النظامية التي تعتمد على إجبار السوفييت على تقديم السلاح المتقدم، وأن هذا الأسلوب لن يطور العمل الاجتماعي الشعبي في مصر، بقدر ما سيخدم استمرار سلطة البرجوازية البيروقراطية. لكن قيادة عبد الناصر وشخصيته، وكانتا تتجاوزان كثيرًا من الملاحظات على أسلوب عمله، رغم أنه لم يستطع أن يُخلِّص الثقافة السياسية الرائجة من الالتحاف بالدين تارة، وبالتراتبية العسكرية تارة

أخـرى بما لم يتح رواجًا لفكر الحرب الشـعبية وأبعادها الاجتماعية، ومع ذلك أخذ هذا الفكر في الانتشـار بعد انتصارات حركة التحرير نسبيًّا في أمريكا اللاتينية وفي إفريقيا، حتى وصل للرئيس نكروما نفسه – صاحب اللاعنف – في منفاه، وعكسته كتبه الأخيرة.

وأذكر أننـي قابلت "نكروما" في "كوناكري" أوائل عام 1972 في مقر إقامتـه في غينيا بعد الإطاحة بـه – وكان ذلك بعد حضوري اجتماع لجنة تحرير المسـتعمرات في أكرا ومقابلاتي الودية مع الزعيم كابرال وغيره، مما أعطـاني آمالًا جديدة حول قوى التحرر الوطني، وأملُ آخر أن نسـتطيع أن ننهض في مصر لحرب تحرير مماثلة، وهي التي بدت مسـتحيلة على يد الانقلابي أنور السادات. ولكني فوجئت بروح نكروما الشبابية وهو يضع كتابه عن "حروب التحرير" أو "حرب العصابات" تحديدًا وأمله في العودة لغانا بهذه الطريقة..!

تذكـرت وأنا في طريقي إليه أنني كنت المختص – بحثيًّا – عن "غانا" ضمن رئاستي لقسم غرب إفريقيا عام 1965/ 1966 في الشؤون الإفريقية. وكنت أجمع المعلومات بدقة عن بلدان المنطقة وقياداتها، وخاصة مع انتشار أخبار القلق على عدد من النظم عقب انقلاب موبوتو في الكونغو نفسـها (نوفمبر 1965)، بل وما كان مثيرًا للقلق لدينا عما اعتبرناه ساعتها "انقلابًا" على الزعيم أحمد بن بللا في الجزائر (يونيو 1965)، ومن هذه المتابعة أذكر أن وصل إلينا ما يفيد أن بعضًا من مجموعة الضباط الأفارقة التي كانت في

الكونغو ضمن قوات الدول الإفريقية المساندة للوموميا أول الستينيات، أو تحت قيادة الأمم المتحدة من أجل الاستقرار في الكونغو اقتربت منها المخابرات الأمريكية، وجندت بعضهم لعمل انقلابات في بلدانهم. ومن بين الأسماء الكبيرة في هذا المجال الجنرال "أنكرا" قائد الجيش الغاني عقب عودته لأكرا! وكانت مختلف المصادر بما فيها سفارتنا ومصادر خاصة أخرى سرية تردد قلقها على غانا ونكروما بوجه خاص... وأذكر أني جمعت كل ذلك في تقرير تأكدت من صعوده عبر السيد فايق أو سامي شرف للرئيس عبد الناصر، مع غيره من التقارير بالتأكيد فضلًا عما عرف عن متابعات عبد الناصر بنفسه خلال مقابلاته وغيرها للأنباء الدقيقه... وإذ بالجنرال "أنكرا" هو الذي يقوم بالفعل بالانقلاب في أكرا (فبراير 1966)، خلال سفر نكروما علي رأس وفد من قادة البلاد إلى فيتنام الشمالية، للمساهمة في صلحها على الصين والروس، من أجل مساعدة الثورة في فيتنام الجنوبية! وانزعج عبد الناصر وهيئاته جميعًا للخبر...

ولم أعرف أن جذور هذا الانزعاج كانت عميقة بهذا الشكل إلا عام 1968 (لا أذكر التاريخ بالضبط) من خلال حديث لعبد الناصر مع "ديفيد هيرست" مراسل "الجارديان" حينئذ وصديق عبد الناصر (ويعيش في بيروت حاليًا)، حيث سأل هيرست عبد الناصر، لماذا يسقط أصدقاؤك الرؤساء بهذا الشكل؟ وروى له ناصر في الحديث أن عددًا من الزعماء يهتمون شخصيًا بالعلاقات الخارجية، ويتركون شئون الداخل لأناس غير موثوق بهم... وأنه تأكد من ذلك في حالة الرئيس نكروما، الذي توفرت

المعلومـات لدى عبد الناصر بأن الجيش يتآمر للقيام بانقلاب ضده، وأنه شـخصيًّا (عبد النـاصر) كانت عنده بعض هـذه المعلومات المباشرة عن "أنكرا" وترتيباته.. وأنه لذلك عندما سمع بقيام الرئيس نكروما برحلته إلى "فيتنام" تاركا البلاد في هذه الظروف، وأنه سيمر بمطار القاهرة، نزل بنفسه إلى المطار على غير العاده غالبًا، لينصح نكروما بالعودة لمعالجة الموقف. لكن نكروما لم يسـتجب...! وقد عالج "بازل ديفيدسـون" في كتابه عن انقلاب نكروما "النجمة السـوداء" ('Black Star') نفس القصة. بل إن تطور موقف مرافقي نكروما مثل وزير الخارجية عقب سماع خبر الانقلاب لم يكن يشير إلى محيط طيب من الأعوان...!

تذكـرت كل ذلك وأنا في طريقـي إلى الرئيس نكروما في كوناكري في يناير 1972... ولكني ألمحتُ له بذلك فقط عبر تساؤلي عن أسباب وقوع الانقـلاب رغم انجازاته في غانا، فأشـار إلى تكوين الجيش الموروث عن الإنجليز المستعمرين، وعن أفراد الطبقة الجديدة التي تتكون بعد الاستقلال كانتهازيين. بل واعتذر عن إيمانه بالحلول السـلمية للمواقف المختلفة أو في عملية التحرير... إلخ. أهـداني يومها كتابًا جديدًا له بعنوان "الصراع الطبقـي في إفريقيا" مشـيرًا أنه يمثـل نقلة جديدة في تفكـيره، كما قدم لي كتاب "قواعد حرب العصابات في إفريقيا" كمرشـد لحركات التحرير في نضالها المسـلح..! أهديت كتاب "الصراع الطبقي" بتوقيعه في السـنوات الأخـيرة لأحد قادة حزب المؤتمـر النكرومى في غانا، وصـورة منه لابنه جمال في القاهرة.

كان نكروما يبدو جادًّا كعادته، وسأل عن أحوال مصر. وبدا عليه الإعياء، لكنه كان بادي التفاؤل بأنه سيعود عقب انقلاب جديد في غانا سنة 1972، غير أنه للأسف توفي عقب مقابلتي هذه بأشهر قليلة، يوم 27 إبريل 1972.

حرب الاستنزاف وعملية إغراق الحفار

كان الهم الإسرائيلي مسيطرًا علينا طول الوقت منذ نكسة 1967، بما كان يفوق وزنه في السياسة المصرية قبل ذلك بالتأكيد. ففي الفترة السابقة على عام 1967 كنا نبني "الدولة الوطنية التنموية"، التي ستحيط في النهاية بإسرائيل، "وتقبض على أنفاسها" بشكل أو بآخر، كما كان يجيء كثيرًا في كتابات محمد حسنين هيكل وغيره.

لكن بعد عام 1967 كنا نريد أن "نزيح الهم المباشر من فوق صدورنا"... وكان شعار "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة" ثقيلًا، لأنه لم تكن هناك إمكانية للقول بغيره. وما إن كانت تبدو بادرة للقوة في حرب الاستنزاف، أو عند بعض المواقع المباشرة (مثل معركة رأس العش وإغراق المدمرة إيلات) إلا وكنا نشعر بسعادة غامرة. وقد نابني من الحب جانبًا حين وقعت في منطقة "تخصصي" أو قل نفوذي بعض الأحداث الهامة في تلك الفترة الحرجة، فقد كانت هناك ثمة ترتيبات لمساعدة الحكومة الفيدرالية (العسكرية) في نيجيريا، في معركتها مع "انفصاليي بيافرا"، ووجه

عبد الناصر محمد فايق بترتيب ذهاب عدد من الطيارين المصريين بعد ضرب مطاراتنا في حرب 1967 إلى نيجيريا بصفتهم "متقاعدين" في مصر – كما روى محمد فايق عن ذلك كثيرًا. وكنت أتابع بالطبع الوقائع السياسية في نيجيريا وحولها، وأعد التقارير حول ذلك أولًا بأول، وكأن الأمر مصري تمامًا، انتظارًا "لنصر هناك" نفخر بالمشاركة فيه... ويذكر محمد فايق على استحياء أنه تعرف على "حسني مبارك" القيادي بسلاح الطيران فترتها، عندما كان يأتي لمكتبه لترتيب سفر الضباط المرشحين للسفر إلى نيجيريا! أعترف أنني لم أحظَ بالمشاركة في مثل هذه المقابلات التي كان يحضرها العسكريون فقط في المكتب..!

وكانت الحمية مستمرة مع حرب الاستنزاف، لمحاولة معالجة آثار الهزيمة والذي أُطلق عليها اسم "إزالة آثار العدوان" (تحرير الأرض العربية التي احتلت عام1967 وفيها سيناء) ولو بعمليات نوعية تدريجية، سياسية كانت أو عسكرية. لذلك كانت مساعدة نيجيريا في مواجهة انفصال "بيافرا"، مهما كان الرأي في حجم ودلالة مساهمتنا كسبًا حقيقيًّا.

كما كان إغراق الحفار، الذي أجَّرته إسرائيل للحفر في سيناء، والذي أغرقته الصاعقة المصرية في ميناء أبيدجان بساحل العاج في مارس عام 1970 – بعد إغراق "إيلات" في المياه المصرية عام 1968 – مكسبًا عسكريًّا ونفسيًّا جديدًا. فقد فوجئت مثل غيري الكثيرين ذات صباح بأخبار إغراقه في ميناء أبيدجان، وأن الضفادع البشرية المصرية هي من قامت بهذا العمل.

وقد كانت متابعة دولة ساحل العاج سياسيًّا من أعمال بحثي اليومي، ولا يلمِّح ذلك بالطبع بأي دور لي في هذا العمل الهام، وأنا لعمري لم أتحدث بذلك في أية لحظه، لأنني لا أتصور أني أُغرق دجاجة في مثل هذا البحر اللجي (أقصد الخليج الغيني للأطلنطي)!

ولكن المفاجأة لي أني لا بد قدمت معلومات هامة عن ساحل العاج والمنطقة لزواري في المكتب من الضباط أو الدبلوماسيين المصريين، بما لم أبخل به بالتأكيد وهم مسئولون عن أعمال دبلوماسية أو حتى سرية عامة بطبعها، ومعلوماتي في بطاقات ومذكرات وكتب، لخدمة العمل السياسي والوطني بالأساس، ففرحت بما حدث. ابتسمت يومها حين قال لي زميل قديم: "ضحكوا عليك وأخذوا خزينتك من المعلومات"..! فاكتفيت بالإعراب عن سعادتي بأني كنت مفيدًا في شيء ما في هذه الحرب الضروس...

حكى لي الكثيرون عن جهد أمين هويدي ومساعده حسن عليش في هذه العملية، ولكنها بدت لي متسقة مع الجهد الهائل لبناء "جيش جديد" من الكفاءات الحديثة والمتعلمين، بعد كارثة "جيش عامر" الذي لم يحارب عام 1967. وقد بدا الفارق في نتائج الصراع والتوافق بعد مرحلة عبدالحكيم عامر، ومثل لي أمين هويدي مثالًا لهذا الفارق. وكنت عرفت قدراته الفائقة في التنظيم وأعمال المخابرات الخارجية، منذ أعرب عن مخاوفه من تعاون إسرائيل مع القوى النووية العالمية، بل والجنوب إفريقية لتقيم مفاعلها

النووي منذ منتصف الستينيات، بينما أتعامل معها كنموذج للاستيطان والتمييز العنصري بالأساس، ورأيته يومًا وهو يجمع مسؤولين من جميع التخصصات في الرئاسة، ويعطي تعليمات عن أدق التفاصيل التي يجب أن نتنبه لجمعها من أي مصدر لنا، لنعرف في أسرع وقت ما إذا كانت إسرائيل تملك مفاعلًا نوويًّا. وكنت أصاب بالدهشة من استدعائي وزملائي في القسم الإفريقي – ونحن لا ناقة لنا ولا جمل في مسائل إسرائيل والعروبة، والصراعات الدولية في الشرق الأوسط – لكن هويدي لم يهدأ، وأنا والعشرات في الأقسام المختلفة لم نكن نتوانَ عن محاولة الوصول إلى معلومات، عن اليورانيوم أو البلاتينيوم في جنوب إفريقيا أو الكونغو والنيجر وغرب إفريقيا، وإذ بنا في قلب المعركة المخابراتية بحكم معرفتنا بهذه البلاد ولتقدمها علها تفيد، وفق تعليمات هذا "القائد الشرس". ولا ننسى أن تهمة صدام حسين في لحظة كانت استيراده اليورانيوم من النيجر...!

ولم تتوقف العواصف إلا ومصر تعلن عن معرفتها بوجود المفاعل النووي في إسرائيل، وتشكو للعالم عام 65/ 1966 عن مخاطر السباق النووي في الشرق الأوسط! ولتنطلق التكهنات أن عبد الناصر لا بد سيسعي لدى السوفييت لمعاونتنا في "بحوثنا النووية"، وعشنا أيامًا صعبة مع اتهامنا باستضافة ضباط النازي الألمان (علماء الذرة) من ألمانيا الشرقية لهذا الغرض. والسوفييت لم يكونوا متحمسين لأكثر من هذا التعاون مع الألمان الشرقيين..!

قد لا يكون الآن سرًّا أو خافي الدلالات ما اطلعت عليه بنفسي – وهو

تقرير لا بد أنه في الأرشيف القومي – كتبه صلاح هدايت، أحد الضباط المهمين، والمسئول من كبار الضباط الأحرار عن قطاع البحث العلمي في نظام يوليو، وزيرًا أو مستشـارًا. حيث فوجئت بأن الرجل كان في الصين بتكليـف من عبد الناصر وقابـل الزعيم ماو تسي تونج – عقب كشـف موضـوع المفاعل الإسرائيلي – وبحث معه مسـألة معاونـة الصين لنا في هذا المجال (بما يبدو نتيجة تحفظ السوفييت). وجاءني التقرير لمجرد ذكر إمكانيـات الدول الإفريقية في ملكية معادن ذات صلة. لكني فهمت منه الكثير الغامض حول الموقف السـوفييتي من جهة، والموقف الصيني من جهة أخرى، والذي كان أشد إدهاشا، حيث نقل هدايت عدم رضا الزعيم ماو عن سـعينا في هذا الاتجاه الآن، لأننا لم نبنِ القاعدة الصناعية الكافية التي يجب أن تتوفر لحائزي "السلاح النووي" أو المفاعلات النووية، وأننا لا بد أن نضغط في هذا الاتجاه أولًا. وكدت أفهم أنه يقول ضمنًا "اذهبوا لاصدقائكم"، وإن فهمت أنه لم يُثر موضوع العلاقات المصرية السوفيتية بشكل مباشر، وكانت الصين في مدخل ثورتها الثقافية في منتصف الستينيات. والغريب هنا أن مصر التي كانت تبحث عن القدرات النووية تهزم هكذا عـام 1967! وبدأت أدرس تلك الكتابات النظرية، عن أثر البعد الطبقي في أدق المواقـف واثقًا من علمها وأهميتهـا، وهي كتابات مصرية وعربية وقتئذ عن جيش البرجوازية الصغيرة... إلخ!

كان الأفارقة – مثلما كنا في مصر – يناقشون وضع البرجوازية الصغيرة والبرجوازيـة البيروقراطية. حتى أني لاحظت الخـلاف الكبير – والحاد

أحيانًا – بين ممثلي حركة التحرر في غينيا بيساو حزب الاستقلال PAIGC، وحركـة تحرر موزمبيق الفريليمـو FRELIMO. الأولى تعتمد على تحليل "كابرال" عن الدور الهـام للبرجوازية الصغيرة، أبناء المدن وأبناء التجار في حمـل التنظيم ومواجهة البرتغاليين المتخلفين، وأن موقف قيادات مثل كابرال كان قويًّا في هذا التحليل انطلاقًا من جزيرة كاب فيرد بالذات، وأن "ثقافة المقاومة" تربط هذه الطبقة النشطة والصاعدة بكافة طبقات المجتمع الأخرى في الريف والمدن على السواء. وبرز مفهوم كابرال ذاك في محاضرته بمنظمة اليونسـكو عام 1968، عن ثقافة التحرر الوطني مما أعطى موقفه قوة خارجية وداخلية على السـواء. أعقب المحاضرة نشره لكتاب "نظرية الثورة" الذي جعله من منظري حركة التحرر الوطني الأساسية لاعتباره منبهًـا مبكـرًا لدور الثقافة بما لا تهتم به دول وطنيـة وتقدمية بقدر كافٍ. كما لم يهتم بها السوفييت، حيث موقع البرجوازية الصغيرة غير مشرف في هيكل النظرية الماركسـية، أو هكذا فهمت مما يجري بين الرفاق في الرابطة الإفريقية. كان الزعيم الشاعر "نيتو" زعيم الحركة الشعبية في أنجولا قريبًا مـن ذلك الفكر، ويعطـي قدرًا من التوازن بين كابـرال، وزعيمي جماعة موزمبيق "فريليمو"، دوس سانتوس وموندلاني، شبه الماويين، المرتبطين عمليـا – أكثر منه نظريًّا – بتحرير مناطق هي ريفية فلاحية بالضرورة في شـمال البلاد، قرب تنزانيا – مركز المسـاعدة على التحرك – وذات الميول الشعبوية وشبة الماوية بدورها.

ولكـن الزعماء الثلاثة والحـق يُقال كانوا يعاملونني بمـودة فائقة فيما

بينهم كمثال للإخلاص لقضيتهم، بشكل منحني ثقة واعتزازًا حقيقيين. بل والطريف أن ذلك جعلني طرفًا في حوارات مصرية جادة، حول "طبقة يوليو" كطبقة برجوازية صغيرة، تتمترس بكونها عسكرية وتتمدد لتكون بيروقراطيـة أيضًا، لأن البرجوازية الصغيرة لا قوة ذاتية لها إلا مع الطبقة الوسـطى، أو ذيلية مع الرأسـمالية المحلية (الوطنية؟) بما يعرض مشروع الدولة الوطنية كله للضياع. ولم نكن نتوقع بثقة أن ذلك يمكن أن يحدث ولو تدريجيًّا.. وكانت مجلة الحرية الصادرة عن الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين تكتب في ذلك كثيرًا وتلحق بها بعض الأقلام المصرية من أصدقائي.

حركات التحرر في السبعينيات

كادت النظم الوطنية تترهل بسـبب هذه الموجة من الانتكاسـات في الستينيات (الانقلابات العسكرية المتتالية)، لكن الكفاح المسلح في المستعمرات البرتغالية كان يتقدم، بفضل صلابة زعماء أمثال أميلكار كابرال زعيم حزب استقلال غينيا بيساو، ونيتو زعيم حركة تحرير أنجولا الشعبية، وموندلاني زعيـم حركة تحرير موزمبيق، وقد عمقوا صلاتهم بدول العون الخارجي (السوفييت والصين)، وكانت مصر نفسها تساعد في ذلك.

أذكر حديثًا لي مع الراحل العظيم كابرال في أكرا قبل اغتياله بأسبوعين (يناير 1973)، وأسر لي سـاعتها أنهم بصـدد الحصول على مدافع مضادة للطائرات من السوفييت، وأن في ذلك رسالة لقوى الأطلنطي أن الحرب

ستصعب عليهم في بيساو مثلما كانت في فيتنام مع تساقط الطائرات تحديدًا. وقد تذكـرت هذا الحديث جيدًا عندما قـرر الأطلنطي – على ما يبدو – التخلـص من النظام البرتغـالي عقب ذلك مباشرة، ليأتي سـيينولا زعيم الانقـلاب ببشرى التفاوض مع قيادات "الأقاليم البرتغالية" في منتصف السبعينيات.

أما الرئيس سام نيوما زعيم حزب سوابو عافاه الله وهو يحمل الآن صفة المؤسس، فقد تشدد بدوره مع مؤسسات الأمم المتحدة ورغب في تكثيف التعاون مع أنجولا بعد استقلالها 1975، لتمرير السلاح الوفير لديه خاصة وأن القوات الكوبية شكلت درعًا قويًّا لقوى الكفاح المسلح في المنطقة كلها. وأذكر هنا أن الرئيس "نيوما" حدثني بألم في حفل ذكرى استقلال أنجولا الذى حضرته في لواندا عن مشكلة وجود حركة "يونيتا" الأنجولية بقيادة "جوناس سافمبي"، وهي المرفوضة إفريقيًّا، لكنها تصطدم بالحركة الوطنية الأنجولية، حزب الجبهة الشعبية لتحرير أنجولا (مبالا) من منطقة قرب حدود ناميبيا، تعرف بشريط "كابريفي"، مما كان يخشى معه على علاقات قوى التحرر الوطني في هـذه الفترة الحرجة في مواجهة النظام العنصري بالمنطقة. وقد فهم احتـمال مقابلتي للرئيس نيتو خلال احتفالات ذكرى الاسـتقلال الأولى عام 1976، وكانت تربطني به علاقة مودة خاصة أثناء زياراته للقاهرة ويعرفها الرئيس سام نيوما، جعلت الأخير لا يلجأ للوفد الرسمي المصري وأنا خارجه في المعاش! في غياب محمد فايق الذي يسيئه غيابه في السجن كما ذكر لي ذلك، وترك لي أن ألمح للرئيس "نيتو" بالمشكلة

التـي اعتبرها نيتو نوعًا من تعاون "سـوابو" (ناميبيا) مع سـافمبي خائن الحركـة الوطنية، بينما يريد "نيوما" تأكيد إخلاص الناميبيين مع الحكومة الأنجولية، ولم أتحرج من عرض هذا القلق على الرئيس نيتو، وهو رئيس الدولة الجديدة، فوعد ببحث المشكلة بشكل ودي أيضًا.

جعلتني تلك المقابلة أفهم الكثير من عناصر سياسة التفرقة العنصرية في الجنوب الإفريقي، ومناورات النظم الاستيطانية العنصرية لبث الفرقة في المنطقة، في الوقت الذي كانت حركات التحرير تشـعر فيه أنها وحدها في الميـدان، إزاء تراخي معظم الـدول الإفريقية المحافظة مع العنصريين، لولا استمرار دعم بعض الدول المتحررة وبعض الدول الاشتراكية، ومع ذلك لاحظت أثر تراخي الدول الاشتراكية نفسها أحيانًا في مساعدة نيتو قبل الاستقلال، ولذا اتجه إلى التلويح للسوفييت بالتقارب مع الصين، مما جعلهم يكثفون المساعدات لحركته..!

كانت حركات التحرير في عواصم التحرر الوطني ذات سند من قوى شـعبية في هذه البلدان، التي كسرتها موجة الانقلابات العسكرية. كانت القاعدة الشعبية تضم اتحادات العمال في مصر والمغرب وغانا وتنزانيا والسودان وكينيا. وكان التنافس يعطل العمل أحيانًا بين قيادات الاتحادات العمالية الإفريقية، مثل أحمد فهيم في مصر، والصديقي في المغرب، وتتيجا في أكرا، وكمبونا ورشـيد كاواوا في دار السلام، والشفيع في السودان، مما أضعف مواجهتهم للمعتدلين مثل توم مبويا في كينيا، والحبيب عاشـور في تونس وغيرهما.

كانت هذه القيادات ذات وزن مكنها من التوسط لحركات التحرير في مطالبها لدى "الزعماء" في بلدانهم قبل الانقلاب، ودخلت أحيانًا على الخط قيادات طلابية ذات طابع يساري، مثل معسكر جامعة دار السلام، أو عناصر ثورة أكتوبر من المثقفين في السودان، لكني في النهاية لا بد أن أعترف وفق تجربتي أن الأمور كانت تظل دائمًا في يد الزعيم، وبحدوث الانكسار في وضع هؤلاء نتيجة الانقلابات وتغيرات السبعينيات المتلاحقة، سقطت أعلام كثيرة من قوى الأمان. ربما يمثل هذا الفرق في سلوك القيادات والقوى الوطنية، وقائع مثل مواجهة النظام الاستيطاني في روديسيا عام 1965، مقابل الموقف من الحوار مع النظام العنصري في جنوب إفريقيا خلال الثمانينيات.

في تجربة روديسيا أذكر أني تلقيت مثل غيري أنباء إعلان إيان سميث للاستقلال من جانب واحد UDI للنظام الاستيطاني في نهاية نوفمبر 1965، وكانت تلك فترة ازدهار موجة التحرر والتحول الاشتراكي في مصر، ومثلها في غانا ببناء سد الفولتا، وقريب منها في تنزانيا بإصدار إعلان أروشا الاجتماعي الديمقراطي، وبنجاح عمل لجنة تحرير المستعمرات فوق أرض تنزانيا... إلخ، ولذا بدا إعلان روديسيا تحديًا خطيرًا لإرادة التحرير. أذكر أنني كباحث في موقع هام كالذي كنت فيه استقبلت التعليمات بجمع كل العناصر المؤثرة في الموضوع، وكانت مسئولية بريطانيا – بحكم أنها الدولة المستعمرة – هي الأساس وراء هذا العمل، أو إمكاناتها في الحد من تأثيره في السياسة الإفريقية. ولم ينقضِ اليوم حتى شعرت أن كل المصادر من

وزارة الخارجية إلى مكتب الرئيس تبدي نفس الاهتمام والقلق. ولا أنكر أنه كان هناك شعور بأن انتصار النظام الاستيطاني في ذلك الوقت يعتبر إضافة للنظام الإسرائيلي الاستيطاني في فلسطين، بينما كان النضال الفلسطيني يتصاعد وتحديات الدول العربية التحررية تتصاعد أيضًا (مصر/ وسوريا/ الجزائر) وشعرت أن مثل هذا الإحساس سوف يولِّد رد فعل قويًّا ومناسبًا لم أقدر كنهه، إلا حين خرج السيد محمد فايق بمذكرة موجهة للخارجية وبتأشيرة من الرئيس عبد الناصر، بأن يتم البحث مع غينيا وغانا والجزائر ودول الدار البيضاء وآخرين، حول إمكانية قطع العلاقات السياسية مع بريطانيا بحكم مسئوليتها عن مستعمرتها "روديسيا"، ولا يترك نظام إيان سميث يحقق شرعيته بهذه الطريقة.

وأذكر أن الاتفاق تم بالفعل بعون من سيكو توري على وجه الخصوص. ولم يمضِ أسبوعان إلا وبريطانيا تواجه حركة قطع العلاقات بها مع إحدى عشرة دولة إفريقية مما جعلها تتحفظ على إعلان روديسيا على المستوى الدولي. كان هذا الخبر عيدًا في الرابطة الإفريقية مقر مكاتب حركات التحرير، كما كان لافتًا للمراقبين للسياسة المصرية، حيث كانت بريطانيا تشن في هذه الفترة أقسى الضربات على الوطنيين في عدن، وتواجه القوات المصرية التي تدعم الثورة اليمنية في نفس الوقت، ومع ذلك لم تقطع مصر العلاقة مع بريطانيا لعدم اتهام مصر بالتدخل في اليمن. لكن ها هي تشعر بخطر استقرار النظام العنصري في روديسيا بدعم بريطانيا التي فعلت ذلك قبلًا بإقامة إسرائيل في مستعمرتها بفلسطين.

للأسف شعرت بثقل المقارنة، عندما وقع العدوان الإسرائيلي على مصر في يونيو 1967 فقطعت غينيا فقط علاقتها بإسرائيل بشكل مباشر، كما أن موقف المندوبين الأفارقة في الجمعية العامة للأمم المتحدة للخروج بقرار قوي حول انسحاب إسرائيل من الأراضي المصرية والعربية، لم يكن مُشرّفًا بالقدر الكافي وإن قيل الكثير عن الضغط الأمريكي والغربي عمومًا وقتها إلا أنه كان واضحًا أن السبب الرئيسي في ذلك هو ضعف النظم الحاكمة تجاه قضايا التحرر بعد انقلابات 65/ 1966.

السادات وتحولاته

كان السادات على وعي كبير بأهمية التشكيل الطبقي للمجتمع عند "طلب السند الاجتماعي" له في تحوله إلى الشمال الغربي، ولم يكن ذلك في ظني مجرد تحول عن "الناصريين أو اليساريين" كتنظيمات إلى التنظيمات الإسلامية وخاصة الإخوان المسلمين. ولم يحتج الأمر لذكاء كبير – لم ينقص السادات أصلًا – لإدراك أهمية إطلاق التجارة الحرة والمشروعات الصغيرة والخدمية بقيادة الإسلاميين، فهم لا يستطيعون التحرك معه أو مع غيره إلا في هذه البيئة الاقتصادية فيما سمي "بالرأسمالية التجارية" في حالة تبلورها تدريجيًّا في مصر. وإلى جانب هذا الإدراك الموجه لمستوى العوام والشعبوية، كان السادات يتجه أيضًا إلى "النخبة" أو النخب المهيمنة التي تنتظر هذا التطور منذ مدة لتتجه بمصر كلها إلى دوائر الرأسمالية العالمية

ومعسكرها القوي. وكانت هذه النخبة من بدائل "مراكز القوى" الناصرية وهي تعرف خفاياها في الوقت نفسه.

ونلاحظ هنا أن شخصيات كبيرة مُعتبرَة قد قفزت إلى جانب السادات مباشرة فكان هناك عسكريون كبار مثل كمال حسن علي الذي تولى رئاسة بنوك خليجية مصرية، وسيد مرعي الذي كان يمثل أصحاب الأملاك والمشروعات الزراعية، وعثمان أحمد عثمان بشركاته الكبرى، ومصطفى خليل وعزيز صدقي اللذين مثَّلا أوضاع التكنوقراط الجديدة، وثمة المعلم أو السند الأكبر محمد حسنين هيكل، ضابط الاتصال النشط مع الدوائر الغربية وإن كان قد غضب من استبعاد السادات له عندما تمكن الأخير من صداقة كيسنجر.

كان لكل ذلك نتائج اجتماعية داخلية هامة بالطبع وتراجعات قد نسجل معظمها لاحقًا، ويظهر أثر هذه التراجعات بسهولة على المستوى الدولي. غير أن مجتمعنا الثقافي لم يكن يتابع جيدًا أثرها على مستوى العمل الإفريقي، ذلك الأثر الذي أدى في أوله إلى سجن محمد فايق باعتباره من قيادة "مراكز القوى" من "الجناة" الناصريين، لتنتهي بإبعادي مُحالًا للمعاش كأفضل حل بديل للسجن أو الفصل التعسفي لصغار المختلفين..!

بدا لي ذلك من إشارات مباشرة أحيانًا أو غير مباشرة أحيانًا أخرى، فثمة صمت على الأوضاع في كثير من المستعمرات، وعلى رأسها روديسيا الجنوبية (زيمبابوي لاحقًا)، التي سبق أن أشعلت فيها مصر المقاومة ضد

الاستعمار البريطاني نفسه عام 1965، برفض استقلالها على يد المستوطنين، ليصبح ممكنًا في ذلك الزمن الساداتي الصمت على ما سمي بنمط الحكم الداخلي فيها (Internal Settlement) ومواصلة التجارة معها باستيراد "الدخان" منتجها الرئيسي، بل وبإجراء مقابلات مع مسئوليها في بلدان خليجية لترتيبات لم أفهم إلا أن تكون بشأن الأوضاع في الجنوب الإفريقي ككل.

ولم يكن واردًا مشاركة أحد من الأحزاب المناضلة فيها مثل "زابو" و"زانو" في هذه العلاقات بل ثمة ما بدا تحفظًا مباشرًا على سلوك الدبلوماسية المصرية الساداتية، مع محاولة عدم القطيعة وخاصة من حزب "زابو"، إلى حد أن يُسأل "جوشوا نكومو" زعيم زابو مرة في مؤتمره الصحفي بالرابطة الإفريقية من قبل - مراسل بي بي سي عما إذا كان السادات رفع يده عنهم إلى حد التأثير في مسيرة نضاله، فيقول تحت كل أضواء المؤتمر إنه لا يظن ذلك، وأن الشاهد على استمرار دعم مصر له هو وقوفه الآن إلى جانب هذا الشاب الذي تعرفونه في هذا المكان مشيرًا بالطبع إلى حجمي الصغير إلى جانب بنيته الضخمة..!

استمر مثل هذا الموقف مع آخرين طوال الوقت. وقد حاولت مرة أن أستثمر كون قضية ناميبيا من قضايا الأمم المتحدة الحية، وأن "سوابو" بزعامة سام نيوما يعتبر الممثل الشرعي الوحيد، ومِنْ ثَمَّ فإني دعوته لمصر مجددًا خلال أحد المؤتمرات بالقارة – وكان يأتي وحده دائمًا من قبل – رغبةً

مني أن نبقي على دور مصر مع حركات التحرير الإفريقية "ويبيض وجهي" في الرابطة الإفريقية وجمهورها الثوري أيضًا. لكني في مؤتمر خارج مصر في هذه الفترة طرحت المسألة على "الرئيس سام نيوما" كما كنا نناديه، فرجاني ألا أحاول، لأنه لا يمكن أن يحضر لمصر، ومحمد فايق في السجن. وكان هذا موقفًا شبه عام بين القيادات الإفريقية ووفرت هذه القيادات على السادات اضطراره لنفاق لا يجيده في هذا المجال خاصة..!

كان الموقف متشابهًا مع الانجوليين تقريبًا، فقد أخذت الإدارة المصرية تقترب من شخصية باتت كريهة في القارة لعمالتها المباشرة مع النظام العنصري في جنوب إفريقيا ضد الحركة الوطنية التي أبرزتها، أقصد "جوناس سافمبي" رئيس حركة يونيتا UNITA (الاتحاد الوطني للاستقلال 1966). وقد كان سافمبي ذا ثقل سابق مع "روبرت هولدن" وحكومته المؤقتة لأنجولا في المنفى FNLA (الكونغو) (وكنا نعتبرها من موالي السياسة الأمريكية) ولم تكن ذات شأن في الكفاح وإنما خدمة لـ"سافمبي" لفترة من الستينيات بمهارته الدبلوماسية المعروفة، ثم جاء للقاهرة وقرر الخروج على "هولدن" في مؤتمر صحفي بالرابطة الإفريقية. وكان محمد فايق يحاول إقناعه بالانضمام إلى الحركة الشعبية بزعامة نيتو، ويبدو أنه وعده بذلك، وروجت بدوري لتحركه المحتمل وإن كانت قيادات الحركة الشعبية لم تصدقه، وكانت هذه القيادات تبتسم فقط عندما أحاول إقناعهم بالاقتراب منه أيضًا لأنه مكسب للحركة، ولم أستطع معاونة محمد فايق في مسعاه هذا مع ذلك الـ"سافمبي".

انتهى أمر سافمبي أول السبعينيات إلى التمترس بالقبلية في شرقي أنجولا وعلى حدود ناميبيا، وإلى استخدام قربه من حدود جنوب إفريقيا وناميبيا ليكون عقبة في طريق حركات التحرر في هذه المناطق. وقد سيطر على بعضها بالفعل كعميل لنظام الأبارتهايد إلى حد تخصيص طائرة خاصة له للتحرك بين الأقاليم وملاحقة مناضلي الحركة الشعبية ومقاومة وجود الكوبيين الموجودين لمساعدة الحركة. كان موقفه لذلك قويًّا قبل استقلال انجولا، وظل بعد الاستقلال حتى انتهى دوره عند نظام الأبارتهيد وتوقفت مساعداتهم له بسبب التوافقات الجديدة في المنطقة في الثمانينيات. في هذا الجو كان سافمبي يُجري الاتصال مع القاهرة التي مضت في استنكار النظم الشيوعية والكوبية في إفريقيا، وتساعد مقاومة القوى اليسارية أو مواقع مساعدات السوفيت للوطنيين، ليصبح دورها في أنجولا والكونغو وإثيوبيا وغيرها تابعًا للخطة الغربية "لمواجهة الشيوعية" مثل تدخل السادات في أفغانستان بالتعاون مع الإسلاميين في نفس الفترة.

ومثل هذه الاتصالات لم تكن تتم عبر القنوات العادية التي أعمل بها، وإنما اعتبرت من أعمال الأجهزة الخاصة بالإدارة الجديدة للسياسة الخارجية الساداتية.

هكذا انطلقت القاهرة، في إثبات ولائها للأمريكيين وحتى الإسرائيليين، عقب حرب 1973 البطولية التي لم نستفد خارجيًّا من نتائجها بعد عبور القناة وفتحها للعالم، فانطلقت التهديدات لثورة إثيوبيا (منجستو – 1973)، كما

استمرت مساندة "موبوتو سيسي سيكو" في الكونغو كنشاسا (زائير) حتى المعاونة العسكرية له في حربه الدائرة مع الوطنيين في جنوب الكونغو، مما عرف "بشابا" واحد في 1977 و"شابا" اثنين في 1978. وهي الحرب التي أدارها موبوتو إلى جانب حركة يونيتا ضد النظام التحرري في أنجولا عقب استقلالها عام 1975 وكذا ضد القوى الوطنية في زائير نفسها جنوبي البلاد.

لم تكن تحركات السادات أوائل السبعينيات إذن مجرد تخلص من الناصريين واليساريين وتحالف مع الإسلاميين، وإنما كانت انقلابًا فعليًّا للتحول عن خط سياسي كامل، ومنهج اجتماعي إلى جانب التحالفات الدولية... ورغم تقديري الكبير للدكتور بطرس بطرس غالي، فلا ينكر أحد أنه خدم السياسة الساداتية طوال الوقت والتي كان أرساها السادات قبل تعيينه وزيرًا للدولة للشؤون الخارجية تمهيدًا لمعالجة مشاكل كامب ديفيد. أي إنه كان مفيدًا بعلمه ولباقته، بقدر ما كان بالطبع محافظًا يرى التفاهم مع الدول الغربية بمفهوم أنها سياسة دولية بأكثر منها تبعية – هكذا كان يشرحها لي ولغيري من تلامذته وفي كتبه... ولذا سرعان ما قام بصياغة العلاقات مع إفريقيا بما لا يتوفر متابعته هنا (كان الرد السائد على الأفارقة أننا اتفقنا مع إسرائيل على الانسحاب وعليهم تقدير عدوانيتها والموقف منه بأنفسهم).

لم تستفد مصر لمدة كافية من أحداث "ثورية" إفريقية خدمت سمعتها،

أو قد أنقذت التراجع الكبير في سمعتها بعد نكسة 1967، وذلك نتيجة انقلابات 1969 الشهيره والمتتالية، مايو في السودان، وسبتمبر في ليبيا، وأكتوبر في الصومال..! وأذكر أننا لم نبد حراكًا سريعا نحو هذه "الثورات" باستثناء ليبيا بسبب حماس القذافي الشخصي لوراثة دور عبد الناصر. وأظن أنه بعد 1967 لم يكن نظام يوليو نفسه في القاهرة متحمسًا لأن يبدو "ثوريًا"، مع الرغبة في كسب الدوائر المحافظة عربيًا وغربيًا ضمن التحرك لتحرير الأرض المحتلة. ويبدو أن الانشغال بقضية فلسطين، وإنقاذ الثورة الفلسطينية في المشرق، جعل القاهرة تنتظر تحركات "الثورات الجديدة" بأكثر من اللهاث إليها.

وكان الشأن السوداني والصومالي يعنياني أكثر، بسبب تأثيرهما المتوقع على المحيط الإفريقي. هكذا كان تصوري بحكم تجربة السودان عقب الانتفاضة الشعبية فيما عرف بثورة أكتوبر 1964، وكيف ظهر مصطلح "السودان ممر عربي لإفريقيا" ('corridor')، والواقع أنه كان بالفعل معبرًا للثوار اللومومبيين من شرق الكونغو، بل ومعبرًا للسلاح إليهم، وقريب من ذلك كان موقفه مع الإريتريين والتشاديين. وأظن أن منطقة حوض النيل بالذات تتشكل فيها الصور الإيجابية والسلبية منذ ذلك الحين عقب ثورة أكتوبر الطموحة في السودان. وإن كانت الأمور لم تمضِ كذلك طويلًا لأنه تم استيعاب "الثورة" في السودان عقب الانقلاب اليساري الفاشل يوليو 1971، كما أدخلت وفاة عبد الناصر العلاقة بين السادات والقذافي في مرحلة تنافس واستخفاف متبادلين، مع رغبة القذافي في إعلان نفسه

"أمينًا على القومية العربية" مما أفقده أي تأثير إفريقي في تلك المرحلة. وبقي الصوماليون بعيدًا نسبيًّا بسبب ميل "القائد" "محمد سياد بري" إلى إعلان "الماركسية اللينينية"، منهجًا يقترب به من السوفييت استعدادًا لمواجهة إثيوبيا..!

وهنا لا بد أن أتوقف قليلًا:

كان أكثر من نصف أعضاء مجلس الثورة الصومالي من الضباط الشبان (7 أعضاء) ممن كانوا يدرسون في المرحلة الثانوية بالقاهرة، وأعرفهم شخصيًّا باعتبار شراكتي في اللجنة العليا للوافدين التي كانت تُنظِّم المنح الدراسية لغير المصريين من أفارقة وعرب. وفي مرحلة احتياج الصومال لتكوين جيش وطني، إزاء التفتت القبلي الذي عالجت مظاهره من قبل حكومات "عبد الرشيد شير ماركي" الوطنية، ومع التطور الجديد، تحمست بعض القيادات الوطنية للدفع بعناصر شابة للدراسة بالكلية الحربية ليعودوا ضباطًا في الجيش. وبذلتُ جهدي بالمناقشة مع الشخصيات الصومالية والرموز "العائلية" التي كانت تمر بمصر لترشيح العناصر المناسبة، وقدمت معظم أسماء المرشحين إلى كبار المسئولين في الرئاسة وقيادة القوات المسلحة المصرية. وقد التحقوا بالجيش، وتخرجوا ضمن الدفعات السريعة، وغادروا إلى بلادهم. من الطرائف التي أذكرها أني سعيتُ عند تخرجهم إلى الحصول على مصروف جيب للضباط قبل سفرهم ولو للترفيه به عن أنفسهم،

وأحضرت حوالي سبع مئة جنيه من القيادة العامة للضباط السبعة..! ونسيت أن أوقع أية إيصالات مني أو من الضباط، وسافروا. وكدت أفقد وظيفتي تعويضًا عن المبلغ لولا الثقة في ذمتي!

هؤلاء الضباط لم يكونوا ماركسيين أو لينينيين، ولكن "سياد بري" كان عائدًا بدوره من تدريب في كلية الأركان بمصر، وبدا أبًا روحيًّا، يعد البلاد إعدادًا جيدًا.. وقد حدث أن وضع عدة برامج تنموية متقدمة في الزراعة، والحكم المحلي، والعلاقات الخارجية. لكن ذلك جاء ومصر تتجه اتجاهًا آخر، لا يرتاح لانحراف أصدقائنا الصوماليين إلى المعسكر الشيوعي..! فضلًا عن سخط السادات على سلوك القذافي، ومخاوفه المبكرة من الزعيم السوري حافظ الأسد. وعطَّل كل ذلك "ميثاق طرابلس" الموقع آخر عام 1969، مع وقوع انقلاب مايو الساداتي نفسه عام 1971، وتصفية مشاريع الناصرية داخليًّا وخارجيًّا.

وأثر ذلك بالطبع على دور الرابطة الإفريقية في الزمالك ودوري الشخصي الذي بدا مع الانحسار يرتبط بعدم قدرتي على الانخراط في السياسات الساداتية الجديدة. وفي إطار أوضاع تفتقد إلى إشراف محمد فايق وأمين هويدي القابعين في سجون السادات منذ مايو عام 1971، بدأ انسحابي إلا من رعاية ما بقي من حركات التحرير، وكان واضحًا اعتدال السادات مع جناح من الماركسيين المصريين ممن رأوا فضلًا في التخلص من "مراكز القوى" الاستبدادية، وقد أبقى ذلك على التعامل الرخو نسبيًّا مع أهل

اليسار باعتبارهم ليسوا من "مراكز القوى" إياها. وشعرت أن استمراري في العمل الإفريقي نفسه يعتبر مؤقتًا مع أجواء التعاون المحدود القائم، لأن الإدارة الساداتية ما إن استقرت عقب حرب عام 1973 مباشرة، ضمن علاقة وثيقة مع الأمريكيين، والتخفيف على السادات نفسه وتوافقه مع إسرائيل في نفس الوقت بتوقيع اتفاق فك الاشتباك في 1974/ 1975، حتى تغيرت الصورة، وظهر وجه السادات الحقيقي ضد كل التراث السابق عربيًّا وإفريقيًّا.

وبدأ النبش وراء عناصر اليسار بتصفية المكاتب المتخصصة في الرئاسة، وبعملية تضييق واسعة على الحركة الطلابية بالجامعات والنقابات المهنية. وقد شملني ذلك بتحقيق أمني عن صلتي بالشيوعيين، ومعتقدي الاشتراكية رغم أن الدولة كانت تعلن ليلًا ونهارًا حتى لبضعة شهور من حكم السادات أنها اشتراكية للنخاع! ولكن تهمتي كانت واضحة بالطبع بحكم تعدد صداقاتي المعروفة بين اليساريين، وكانت ثمة مصداقية للشكوك، وحجة لاتخاذ قرار الإبعاد عقب التقارير التي قدمتها عني لهم الجاسوسة المصرية "هبة سليم"، خطيبة الضابط الذي أوصل لإسرائيل المعلومات الكاملة عن حائط الصواريخ على القناة قبل حرب 1973، وكانت هي التي توصل هذه المعلومات للإسرائيليين، ومعها تعريف بكل التجمعات السياسية والثقافية في مصر لدراسة الموقف من الحرب. وكانت هبة سليم قد تعرفت على الكثيرين في هذه المجتمعات من خلال حضور كافة المناسبات كمثقفة مصرية تدرس في باريس! وكان مصيرها وخطيبها الإعدام لكن بعد أن

جاء اسـمي ضمن قائمة الخطرين السياسـيين لحضوري حفلات الشيخ إمـام والتجمعات الطلابية المعارضة، فكان لا بد من إبعادي من منصبي بالتحقيق الدقيق معي وعرض تصور لخروجي...

وكان الحل معي أن أعلن استنكاري لهذه العلاقات، أو أقبل التحول لموظف إداري في أي قطاع حكومي، أو أحال إلى المعاش. وكان العرض الأخير أفضل الحلول لأمتلك حريتي بالكامل! فمضت إجراءات إحالتي إلى المعاش في سن التاسعة والثلاثين مع استمراري في "الرابطة الإفريقية" لفترة انتقالية – كما سـيرد في الفصل القادم – واستبعادي رسميًّا في يوليو 1975.